Journal of Alasmarya University
Volume 15, December 2010

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الخامس عشر، ديسمبر 2010

قراءة ثقافية في تصوير الرجل بالحية

د. محمد سليمان عبد الحفيظ*

الإنسان هو أشرف الكائنات على هذه الأرض، حمّله الله ﷻ مسؤولية عمارة الكون، وكرّمه بحمل أمانته، وأسبغ عليه نعمه، وسخّر له بقية مخلوقاته، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20].

والإنسان هو الكائن الذي اجتمعت فيه معظم الصفات المتوافقة والمتناقضة من الفضائل والرذائل، المادية والمعنوية، كالقوة والضعف، والجمال والقبح، والشجاعة والجبن، والخير والشر، والعلم والجهل ... إلخ.

والرجل هو الذكر من نوع الإنسان خلاف المرأة، وهو مقدم عليها ومسؤول عنها في الثقافة العربية لعصر ما قبل الإسلام وعصر ما بعده، يقول الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: 34].

والحيوانات هي من الكائنات التي سخرها الله ﷻ للإنسان، وهي فصائل وأنواع مختلفة، ميّز الله بينها بخصائص وصفات متنوعة ومتفاوتة، لكنه ميّز الإنسان عنها بأن جمع فيه ما فرق فيها من صفات، وخصّه بصفات أخرى جعلته أشرف وأفضل منها، قال بعض الباحثين: إن الإنسان «جامع لكل ما تفرّق في جميع الحيوان، ثم زاد عليها وفضل بثلاث خصال: بالعقل والنظر في الأمور النافعة والضارة، وبالمنطق لإبراز ما استفاد من العقل بواسطة النظر، وبالأيدي لإقامة الصناعات وإبراز الصور فيها مماثلة لما

* الجامعة الأسمرية.

في الطبيعة بقوة النفس »[1].

كما زاد عليها بخصلة الثقافة، وهي نتاج تفاعله مع محيطه الذي تراكم عبر السنين والأجيال، وشمل جميع جوانب الحياة المادية والمعنوية، الواضحة والضمنية، الشعورية واللا شعورية، القديمة والحديثة، المتحضرة والبدائية، المعقدة والبسيطة.

والحية حيوان ينتمي إلى طائفة الزواحف، وهو اسم يطلق على الذكر والأنثى، فيقال هذا حية ذكر، وهذه حية أنثى[2]، ويقسم علماء الزواحف الحيات إلى (10) عشر فصائل، و(2890)، ألفين وثمانمائة وتسعين نوعاً، قابلاً للزيادة، معظمها غير ضارة، فهي تحتوي على (280) مائتين وثمانين نوعا ساما، و(100) مائة نوع عاصرٍ[3].

والحيات من الحيوانات التي كانت تعيش وتتكاثر في بلاد العرب، لقدرتها على التأقلم مع طبيعة هذه البلاد، وقد عرف العرب منذ القدم عدداً من أنواعها المخيفة والمفزعة التي « طار صيتها، وانتشر خبرها خارج حدود جزيرة العرب، فوصفت بلاد العرب بكثرة الحيات الطائرة، حتى زعم أن لبعضها أجنحة، وأنها ذات ألوان متعددة، وكوّن وجودها قصصاً في مخيلة الآشوريين واليونان »[4].

والحيات التي عرفها العرب وشكلت جزء من ثقافتهم أنواع كثيرة، منها: الرقشاء وهي التي فيها نقط سود وبيض، والأزعر وهو ما لا شعر له، والأزب وهو ذو شعر، وذات القرنين، والشجاع، والعربدّ، والأصلة، والصل ويسمى المكللة، وذو الطفتين، والأبتر، والناظر، والحريش[5].

وأطلق العرب على أنواعها المعروفة والمشهورة عندهم عدداً من الأسماء والألقاب والكنى، منها: العيم، والعين، والصم، والناشر، والأين، والأرقم، والجان،

1- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه وشرح غريبه: أحمد أمين وأحمد الزين، المكتبة العصرية، بيروت، صيدا، د. ت. 43/2.

2- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414 هـ-1994م، مادة حيا.

3- ينظر: عادل محمد علي الشيخ حسين، الحيات والثعابين، دار الضياء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1424هـ-2003م، ص30-31.

4- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ساعدت جامعة بغداد على نشره، بغداد، د. ت، 205/1.

5- ينظر: الدميري، حياة الحيوان الكبرى، دار الفكر، بيروت، د. ت، 275/1-276.

والثعبان، والأزب، والأفعى، والأفعوان، والصماء، وأبو البحتري، وأبو الربيع، وأبو عثمان، وأبو العاصي، وأبو مذعور، وأبو وثاب، وأبو يقظان، وأم طبق، وأم عافية، وأم عثمان، وأم الفتح، وأم محبوب، وبنات طبق[6]، ومنها أيضاً: الحباب، والحنش، والحيوت، والحفات، والحضب، والأسود، والأعيرج، والعسودّ، والحارية، والخشاش، والأيم، والعاضة، والعاضهة، وابن قترة، والهرهر، والسفّ، والقزة، والنضناض، والمزعامة[7].

وقد ميّز العرب بين أنواع الحيات من عدة نواحٍ، أهمها: الشكل والحجم، والتعرض للناس وإيذائهم، فقد ذكر النويري أن الحيات مختلفات الجهات «وهي من الأمم التي يكثر اختلاف أجناسها في الصور والشيم، والصغر والعظم، وفي التعرض للناس وفي الهروب منهم، فمنها ما لا يؤذي إلا أن تطأها، ومنها ما يؤذي إذا وطئت في حماها، ومنها ما لا يؤذي في تلك الحال، إلا أن تكون على بيضها أو فراخها، ومنها ما لا يؤذي إلا أن يكون الناس قد آذوها مرة»[8].

وتدل معرفة العرب للعديد من أنواع الحيات، وقدرتهم على التمييز بينها، وإكثارهم من إطلاق الأسماء والألقاب والكنى عليها، على مدى تأثير الحية في ثقافة العرب الطبيعية واللغوية، بل إن تأثيرها لم يقف عند حدّ هذين المكونين، وإنما طال عدداً من مكونات ثقافتهم؛ الدينية والأسطورية والاجتماعية والأدبية.

فقد كانت في الثقافة الدينية القديمة لعصر ما قبل الإسلام، رمزاً من الرموز الأرضية للإله القمر، أو لبعض الأصنام التي كانت في الأصل واسطة لعبادته والتقرب إليه، مثل: (ودّ) و(هبل) و(المقة)[9].

وعبادة الحية أو تقديسها لم يكن أمراً مختصاً بالثقافة العربية القديمة، وإنما كان شائعاً في عدد من ثقافات العالم القديم، مثل الثقافة المصرية، والهندية، والبابلية،

6- ينظر: الدميري، حياة الحيوان الكبرى، 276/1.

7- ينظر: الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، حققه ورتبه ووضع فهارسه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د. م، ط3، د. ت، ص179- 180.

8- النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية مع استدراكات وفهارس جامعة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1351هـ-1933م، 133/10.

9- ينظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 328/6، 298، 259، 253.

والإغريقية، والاسترالية، والمكسيكية[10].

وتأثيرها في الثقافة الأسطورية والمبالغة في رسم صورتها، جاء بسبب ما لاقاه العرب منها من ويلات، تتمثل في القتل أو تشويه الأجسام، وبسبب بعض الخصائص التشريحية في جسمها، كقدرتها على تغيير لون جلدها أو سلخه وتجديده، وقدرة بعض أنواعها على القفز عالياً في الهواء، وغير ذلك؛ ولهذا تحولت «من مجرد كائن طبيعي إلى كائن مهول، شبيه بالكائنات المهولة التي يرد ذكرها في الأساطير والحكايات الخرافية، بل إن صورتها قد تتضخم لتصل بها إلى مستوى المخلوقات الغيبية»[11].

وقد أشار الجاحظ إلى كثرة ما كانت تعرف به الحية، وما كان شائعاً عنها في الثقافة العربية، وألمح إلى أسطورية معظمة، ليس على ألسنة الناس فحسب، وإنما على صفحات الكتب والمصنفات، فقد ذكر أنه رأى «عند داود بن محمد الهاشمي كتاب في الحيات، أكثر من عشرة أجلاد، ما يصح منها مقدار جلد ونصف»[12].

وكانت الحية في ثقافة العرب الاجتماعية والأدبية في عصر ما قبل الإسلام وعصر ما بعده، رمزاً لعدد من الصفات والمعاني التي شغلت بال العرب وأثارت انتباههم، سواء أكانت هذه الصفات والمعاني، متوافقة أم متعارضة، محبوبة أم مكروهة، مستمدة من الواقع أم هي من نسج الخيال، من أهمها: الشجاعة والبأس، والقوة والمنعة، والحمية والحفيظة، واليقظة والتوقد، والدهاء والذكاء، والقتل والبطش، والإيذاء والإيلام، والسوء والشر، والظلم والعدوان، والمكر والخداع ... إلخ

ولهذا فإن رمزية الحية في الثقافة العربية، لم تكن رمزية سطحية أو هامشية، وإنما هي «رمزية ثرية ومعقدة، تجمع بين الشيء ونقيضه؛ لأن الصلة بين رمزيتها القديمة وما آلت إليه ضمن النظرة الإسلامية، لئن تغيرت وصارت أكثر ثراء وتنوعاً،

10- ينظر: ثناء أنس الوجود، رمز الأفعى في التراث العربي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط2، 1999م، ص26-32.

11- نفسه، ص17.

12- الجاحظ، كتاب الحيوان، بتحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، 1416هـ - 1996م، 181/4.

فإنها لم تنقطع، بل تم إدماجها واحتواؤها »[13].

والاهتمام بالحية، واعتبارها من رموز الثقافة، لم يكن مقتصراً على العرب وحدهم، بل هو أمر شاركهم فيه غيرهم، وأصبح شبه ثقافة إنسانية عامة مشتركة بين جميع الأمم، فهي « بدون شك، الحيوان ذو الرمزية الأكثر غنى من بين الحيوانات »[14]، فقد أخذت الحية في عدد من ثقافات العالم رموزاً متعددة، فهي رمز جهنمي، ورمز المعرفة والحكمة، ورمز الشر، ورمز الخصب والبعث، والقيامة والخلود، ورمز أسطوري، ورمز قمري، ورمز جنسي، ورمز الينابيع، ورمز الطبابة والشفاء[15].

أما تصوير الرجل بالحية لدى شعراء العرب، فقد تردد بين الخير والشر، والمدح والذم، بينما تنوعت العلاقة بين الرجل والحية في صور الشعراء، لكنها جاءت متأثرة بما كانت ترمز إليه الحية في الثقافة العربية، بحيث لم تخرج هذه العلاقة في الغالب عن المعاني أو الصفات التي كانت ترمز إليها، والتي يندرج بعضها تحت معنى الخير، ويجري في غرضي المدح أو الفخر، بينما يندرج بعضها الآخر تحت معنى الشر، ويجري في غرض الهجاء.

فالصفات التي تندرج تحت معنى الخير، وجرت في غرضي المدح والفخر كثيرة، وهي في الوقت نفسه متقاربة ومتداخلة مع بعضها إلى حد كبير؛ لأن من يتصف بواحدة منها غالباً ما يكون متصفاً بمعظمها، الأمر الذي قد يصعب من عملية فصل صور الشعراء عن بعضها، وتصنيفها إلى مجموعات بحسب هذه الصفات والمعاني، لكن مع ذلك قد تكون إحدى هذه الصفات هي الأبرز من غيرها، بحيث تكون هي العلاقة الأولى المقصودة من تصوير الرجل بالحية، وهذا الأمر قد لا يتضح إلا من خلال مراعاة السياق الذي وردت فيه الصورة، ومراعاة نوع الحية المصور بها، وما شاع عنها في الثقافة العربية من صفات.

13- محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، دار الفارابي، بيروت، دار محمد علي، صفاقس، ط2، 2005م، ص309.

14- فيليب سيرنج، الرموز في الفن، الأديان، الحياة، ترجمة عبد الهادي عباس، دار دمشق، دمشق، ط1، 1992م، ص116.

15- ينظر: نفسه، ص116-117.

الشجاعة والبأس

يقول النابغة الذبياني في رثاء الحارث بن كلدة:

ماذا رزئنا به من حية ذكر نضناضة بالرزايا صل أصلال[16]

ويقول أحمد بن أبي طاهر في مدح عبيد الله بن عبد الله بن طاهر:

لا حية ذكر في مثل صولته إن صال يوماً ولا الصمصامة الذكر[17]

ويقول البحتري مفتخراً ومتوعداً:

فقل لبني الضحاك مهلا فإنني أنا الأفعوان الصلّ والضيغم الورد[18]

فقد صور كل واحد من هؤلاء الشعراء الثلاثة ممدوحه أو نفسه في الشجاعة والبأس بالحية؛ فصور النابغة الذبياني الحارث بن كلدة بالحية الذكر وصل الأصلال، وصور أحمد بن أبي طاهر ممدوحه عبيد الله بن طاهر بالحية الذكر وبالسيف القاطع، بينما صور البحتري نفسه متوعداً بني الضحاك بالأفعوان الصل وبالأسد المحمرّ العينين.

والحية الذكر تضرب العرب به المثل في الشجاعة والشدّة، يقولون: «فلان حية ذكر أي شجاع شديد»[19]، والصلّ: الحية التي لا تنفع معها الرقية وتقتل من ساعتها إذا نهشت، ويقال للرجل إذا كان داهياً منكراً: إنه لصلّ أصلال[20]، أما الأفعوان: فهو ذكر الأفاعي، ويسمى الشجاع الأسود، وهو شرّ الحيات وأنكرها وأخبثها، يواثب الفارس والراجل، ولا تنفع معه رقية ولا ترياق[21].

16- النابغة الذبياني، ديوانه، شرح وتقديم عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1405هـ-1984م، ص151. رزئنا: حل بنا من مصائب، والرزايا: المصائب، النضناضة: التي لا تستقر في مكان لشرها ونشاطها.

17- أبو هلال العسكري، ديوان المعاني، دار الجيل، بيروت، د. ت، 49/1. الصمصامة الذكر: السيف القاطع.

18- البحتري، ديوانه، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1407هـ-1987م، 160/1. الضيغم الورد: الأسد المحمّر العينين.

19- ابن منظور، لسان العرب، مادة حيا.

20- ينظر: نفسه، مادة صلل.

21- ينظر: الدميري، حياة، الحيوان الكبرى، 27/1.

القوة والمنعة

يقول ذو الأصبع العدواني في قومه:

عـــذير الحـــي مـــن عـــدوا ن كـــــانوا حيـــــة الأرض[22]

ويقول لبيد بن ربيعة مخاطباً عيينة بن حصن الفزاري:

هـم حيـة الـوادي فـإن كنـت راقيـاً فدونك أدرك ما ازدهوا من فنائكا[23]

ويقول أبو العتاهية:

وما زال من قومي خطيب وشاعر وحـــاكم عـــدل فاصـــل متثبـــت

وحيـة أرض لـيس يرجـى سـليمها تراهـــا إلى أعـــدائها تتفلّـــت[24]

فذو الأصبع العدواني صور قومه في القوة والمنعة قبل أن يسوء حالهم بحية الأرض، ولبيد بن ربيعة يهجو عيينة الفزاري، فيصور القوم الذين استخفوا واستهانوا بحمى عيينة في القوة والمنعة بحية الوادي، بينما يفتخر أبو العتاهية بقومه، فيصف أبناء قومه في البيت الثاني بالقوة والمنعة، ويصورهم بحية الأرض التي تواثب أعداءها ولا يرجى للديغها الشفاء.

وحية الأرض، وحية الوادي، قولان يضرب بهما العرب المثل في القوة والمنعة، يقولون: «للرجل المنيع الجانب حية الأرض»[25]، ويقولون: «حية الوادي قد حمته فلا يقربه شيء، يضرب مثلاً للرجل المنيع الجانب»[26]، والرجل المنيع الجانب هو القوي أو الذي ينتمي إلى قبيلة قوية.

22- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، د. ت، 598/2. العذير: العاذر، أي هات عذراً فيما قاموا به.

23- لبيد بن ربيعة، ديوانه، دار صادر، بيروت، د. ت، ص102. ازدهوا: المقصود استخفوا واستهانوا، فنائك: ساحتك، والمقصود حمالك.

24- أبو العتاهية، ديوانه، شرح وفاء الباني قمر، بإشراف حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، ط1، 1424هـ-2003م، ص46. السليم: اللديغ، تتفلّت: تواثب.

25- الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، د. ت، ص517.

26- نفسه، ص422.

أما قوة الحية فقد بالغ العرب في وصفها حين اعتبروها من أقوى حيوانات فصيلتها، فقد ذكر الجاحظ أنه «ليس في الأرض شيء جسمه مثل جسم الحية، إلا والحية أقوى بدناً منه أضعافا، ومن قوتها أنها إذا أدخلت رأسها في جحرها أو في صدع إلى صدرها، لم يستطع أقوى الناس وهو قابض على ذنبها بكلتا يديه أن يخرجها، لشدة اعتمادها وتعاون أجزائها»(27).

ومما يرويه الجاحظ في إطار حديثه عن رضاع الحية وإعجابها باللبن عن رجال من الصقالبة «أن الحية في بلادهم تأتي البقرة المحفّلة، فتتطوي على فخذيها وركبتيها إلى عراقيبها، ثم تشخص صدرها نحو أخلاف ضرعها حتى تلتقم الخلف، فلا تستطيع البقرة مع قوّتها أن تترمرم»(28).

كما يروي في إطار حديثه عن قوة بدن الحية وعلة ذلك، قول واحد ممن يجلب الأفاعي من سجستان: «وربما قبض الرجل الشديد الأسر والقوة القبضة على قفا الحية، فتلتفت إليه فتصرعه ... وليست بذات قوائم، وإنما تنساب على بطنها، وفي تدافع أجزائها وتعاونها، وفي حركة الكل من ذات نفسها، دليل على إفراط قوة بدنها، ومن ذلك أنها لا تمضغ، وإنما تبتلع، فربما كان في البضعة أو في الشيء الذي ابتلعته عظم، فتأتي جذع شجرة، أو حجراً شاخصاً، فتتطوي عليه انطواءً شديداً، فيتحطم ذلك العظم حتى يصير رفاتاً»(29).

الحمية والحفيظة

يقول أبو طالب:

والمأزمان وما حوت ... عرفاتها والمسجد

أنى تضام ولم أمت ... وأنا الشجاع العربد(30)

27- الجاحظ، كتاب الحيوان، 111/4.

28- نفسه، 109/4.

29- نفسه، 117/4-118.

30- أبو طالب بن عبد المطلب، ديوانه، ضمن دواوين الموسوعة الشعرية، المسجلة على قرص CD، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإصدار الثالث، 2003م.

ويقول ابن الرومي في مدح إسماعيل بن بليل:

أعفى البرية عن جرم وأجملها صفحاً وإن سيم وتراً فهو ثعبان[31]

ويقول ابن نباتة السعدي:

فما ترك الأعداء ظلمي تقية ولكنهم خافوا حمية أرقم[32]

فأبو طالب يخاطب ابن أخيه محمداً ﷺ بعد أن ضيقت عليه قريش الخناق وآذت أصحابه، فيقسم بالمأزمان وبما حوته عرفات والمسجد بأن لا يلحقه ضيم ما دام على قيد الحياة؛ ولهذا يصور نفسه في الحمية والحفيظة بالشجاع العربد، والشجاع هو «الحية العظيمة التي تثب على الفارس والراجل، وتقوم على ذنبها، وربما بلغت رأس الفارس»[33]، والعربد هو أيضاً «حية عظيمة تأكل كل الحيات»[34].

ويصف ابن الرومي ممدوحه بأنه أعفى البرية عن الجرم، وأجملها في الصفح، ويصفه بالحمية والحفيظة إن ظلم؛ ولهذا يصوره في هذه الحالة بالثعبان، والثعبان «الحية الضخم الطويل، الذكر خاصة ... وقال قطرب: الثعبان الحية الذكر الأصفر الأشعر، وهو من أعظم الحيات»[35].

ويفتخر ابن نباتة السعدي بنفسه، فيذكر أن أعداءه لم يتركوا ظلمه تقية منهم، وإنما خوفاً من حميته؛ ولهذا يصور نفسه بالأرقم، والأرقم «أخبث الحيات وأطلبها للناس»[36] والناس يهابونه أكثر من غيره؛ لأنه حسب تصورهم «إن يقتل ينقم، وإن يترك يلقم، أي إن تركته أكلك، وإن قتلته قتلت به»[37].

31- ابن الرومي، ديوانه، شرح وتحقيق عبد الأمير علي مهنا، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1411هـ-1999م، 182/6.

32- ابن نباتة السعدي، ديوانه، ضمن دواوين الموسوعة الشعرية، المسجلة على قرص CD، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإصدار الثالث، 2003م.

33- الدميري، حياة الحيوان الكبرى، 50/2.

34- نفسه، 275/1.

35- ابن منظور، لسان العرب، مادة ثعب.

36- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت، د. ت، مادة رقم.

37- الدميري، حياة الحيوان الكبرى، 20/1.

اليقظة والتوقد

يقول طرفة بن العبد:

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاش كرأس الحية المتوقد[38]

ويقول ابن الرومي:

أمين على مال الملوك كأنه حذاراً ونصحاً حية يتقلقل[39]

ويقول البحتري في مدح محمد بن يوسف:

متيقظاً كالأفعوان نفى الكرى عن ناظريه فما يذوق هجوعا[40]

فطرفة بن العبد يفتخر بنشاطه وخفته ويقظته، فيشبه نفسه في ذلك برأس الحية المتوقد، ويصف ابن الرومي ممدوحه بالأمانة على مال الملوك، ويصوره في الحذر والنصح بالحية المتوقد الذي لا يثبت في مكان، بينما يصور البحتري ممدوحه في التيقظ بالأفعوان الذي نفى النوم عن عينيه ولم يذق له طعماً.

ورأس الحية معروف بخفته وسرعة حركته، والأفعى يشاع عنها لدى العرب التيقظ، ونفي النوم، والبقاء منفتحة العينين، ومما يرويه الجاحظ عن نفيها للنوم أنها «تظهر في الصيف مع أول الليل إذا سكن وهج الرمل وظاهر الأرض، فتأتي قارعة الطريق حتى تستدير وتطحن كأنها رحى، ثم تلصق بدنها بالأرض وتشخص رأسها لئلا يدركها السبات»[41]، ومما يذكره في وصف عين الأفعى قوله: «وعينه لا تنطبق، وإن قلعت عينه عادت، وهو قائم العين كعين الجرادة، كأنها مسمار مضروب، ولها بالليل شعاع خفي»[42].

38- طرفة بن العبد، ديوانه، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 140هـ-1986م، ص37. الضرب: الخفيف الوقاد الذكي، التوقد: الذكاء والنشاط والسرعة.

39- ابن الرومي، ديوانه، 270/6.

40- البحتري، ديوانه، 245/1. الكرى: النعاس، الهجوع: النوم.

41- الجاحظ، كتاب الحيوان، 213/4.

42- نفسه، 179/4.

الذكاء والدهاء

يقول طفيل الغنوي:

إذا تخـــازرت ومـــا بـــي خـــزر ثـم كسـرت العـين مـن غـير عـور
ألفيـــتني ألـــوى بعيـــد المســـتتر أحمل مـا حملـت مـن خـير وشـر
كالحيـة الصـماء في أصـل الحجـر ذا صولة في المصمئلات الكـبر[43]

ويقول معاوية بن أبي سفيان:

ألا يـا عمـرو عمـرو قبيـل سـهم لقـد أخطـأت رأيـك في عقيـل
بليـــت بحيـــة صـــماء باتـــت تلفـت أيـن ملـتمس القبيـل[44]

ويقول ابن الرومي في مدح علي بن يحيى النديم:

يســتثير المكائــد الصــمع منهــا أي صــل هنــاك في العــرزال[45]

فطفيل الغنوي يفتخر بذكائه ودهائه، فيصف نفسه إذا كسر عينه بعد أن نظر بمؤخرتها، بالشدة في الخصومة، والتلوي على خصمه بالحجة دون الاستقرار على شيء واحد، وبالسطوة في الشدائد الكبار، ويصور نفسه في ذلك بالحية الصماء. بينما يخاطب معاوية بن أبي سفيان رجلاً من بني سهم يقال له عمرو، مخطئاً رأيه فيه، ثم مصوراً نفسه في الذكاء والدهاء بالحية الصماء التي باتت تنظر في جميع الجهات والجوانب لتعرف مطلب الجماعة، والحية الصماء هي التي لا تجدي معها الرقية، كأنها قد صمت عن

43- طفيل الغنوي، ديوانه، شرح الأصمعي، تحقيق: حسان فلاح أوغلي، دار صادر، بيروت، د. ت، ط1، 1992م، ص143. تخازر: نظر بمؤخر عينه، ورجل ألوى: شديد الخصومة يتلوى على خصمه بالحجة ولا يقر على شيء واحد، وفلان ألوى بعيد المستتر: يضرب مثلاً للرجل الصعب الخلق الشديد اللجاجة، الصولة: السطوة، المصمئلات: الشدائد.

44- معاوية بن أبي سفيان، ديوانه، ضمن دواوين الموسوعة الشعرية المسجلة على قرص CD، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإصدار الثالث، 2003م.

45- ابن الرومي، ديوانه، 245/5. المكائد الصمع: القوية القائمة على الحنكة والدهاء.

سماعها[46]؛ وذلك لعدم قدرة الحاوي على مداراتها أو السيطرة عليها.

أما ابن الرومي فيصف ممدوحه بالدهاء والذكاء، فيصوره عند استثارته للمكائد القوية المنكرة بالصل عندما يكون في جحره، والصل هو «الحية لا تنفع فيها الرقية ... ويقال للرجل إذا كان داهياً منكراً إنه لصل أصلال، أي حية من الحيات، معناه أي داهٍ منكر في الخصومة»[47].

ومما يرويه الجاحظ عن ذكاء الحية عند احتيالها للصيد «أنها إذا انتصف النهار، واشتد الحرّ في رمال بلعنبر، وامتنعت الأرض عن الحافي والمنتعل، ورمض الجندب، غمست هذه الحية ذنبها في الرمل، ثم انتصبت كأنها رمح مركوز، أو عود ثابت، فيجيء الطائر الصغير أو الجرادة، فإذا رأى عوداً قائماً وكره الوقوع على الرمل لشدة حرّه، وقع على رأس الحية على أنها عود، فإذا وقع على رأسها قبضت عليه، فإن كان جراداً أو جعلاً أو بعض ما لا يشبعها مثله، ابتلعته وبقيت على انتصابها، وإن كان الواقع على رأسها طائراً يشبعها مثله أكلته وانصرفت ... وفي هذا الحديث من العجب أن تكون هذه الحية تهتدي لمثل هذه الحيلة»[48].

الإطراق والسكون

وهما من علامات الدهاء والذكاء، لكونهما حركة لا إرادية نتيجة الإغراق في التفكير، تدل على إحكام التدبير قبل الإقدام على الأمر لضمان نتائجه، أو حركة إرادية للتمويه والإغراء، أو انتظار الفرصة لمباغتة العدو والانقضاض عليه.

يقول تأبط شراً في ابن أخته:

مطــرق يرشــح سمــاً كمــا أطــ ــرق أفعــى ينفــث السـمّ صـل[49]

ويقول ضرار الفهري في سعد بن عبادة:

46- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة صمم.

47- نفسه، مادة صلل.

48- الجاحظ، كتاب الحيوان، 4/107-108.

49- تأبط شراً، ديوانه، شرح عدنان زكي درويش، دار صادر، بيروت، ط1، 1994م، ص25.

إن مطـــرق يريـــد لنـــا الأمـــ ـــر سـكوتاً كالحيـة الصـماء[50]

ويقول الشريف الرضي في مدح خاله:

إطراقــة كقبــوع الصــل يتبعهــا عزم يسـور فـلا يبقـي ولا يـذر[51]

يصور تأبط شراً ابن أخته وهو مطرق يرشح بـالموت لعـدوه ويـدبر لـه المكائـد، وينتظر الفرصة المناسبة للانقضاض عليه والفتك به، بالأفعى الصل المطـرق الـذي ينفـث السمّ، ويعـدّ نفسـه للانقضـاض علـى فريسـته، ويصـف ضـرار الفهـري سـعد بـن عبـادة بالإطراق والسكوت لتدبير أمر الانقضـاض علـيهم في هـدوء وروية، فيصـوره في ذلـك بالحية الصماء، بينما يصور الشريف الرضي إطراقـة ممدوحـه بإطراقـة الصـل وسـكونها التي عادة ما يتبعها وثوب وانقضاض مهلك لا يبقي ولا يذر.

والحية في الثقافة العربية توصف بالإطراق والسكون، لكنه إطراق الخبث والـدهاء وسكونهما، الذي عادة ما يسبق العاصـفة المهلكـة، وقـد ذكـر العديـد مـن الشـعراء هـذه الصفة في الحية، فقال أحدهم:

وتـــــارة تحســـــبه ميِّتـــــاً مــن طــول إطــراق وإخبــات[52]

وقال آخر:

أفعى رخوف العـين مطـراق البكـر داهيــة قــد صــغرت مــن الكــبر

صل صـفاً مـا ينطـوي مـن القصـر طويلة الإطراق مـن غـير حسـر[53]

وقد جاء شرح المرزوقي لبيت تأبط شراً متأثراً بهـذه الثقافـة، وذلـك علـى الـرغم من اعتباره البيت من قول تأبط شراً في وصف نفسه، حيث قـال: «شـبه نفسـه في إطراقـه وسكونه، منتهزاً الفرصة في إدراك ثأره، بالحية، وأنه في إمسـاكه يرشـح بـالموت لعـدوه،

50- النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 304/17.

51- الشريف الرضي، ديوانه، شرح يوسف شكري فرحات، دار الجيل، بيروت، ط1، 1415هـ-1995م، 424/1. القبوع: من قبع إذا أدخل رأسه في جلده وتوارى.

52- الجاحظ، كتاب الحيوان، 180/4. الإخبات: الاطمئنان والسكون.

53- نفسه، 289/4. الرخوف: من رخف بمعنى استرخى.

كما أن الحية إذا أطرق نفث بالسم، والرشح كالعرق، والنفث كالقذف، والصل من صفة الأفاعي، ويوصف به الداهية وكل خبيث، يقال: هو صل الصفاة، كما يقال: داهية دواه، وأسماء الحيات وصفاتها تستعار في الدواهي كثيراً»[54].

القتل والبطش

يقول المهلهل في أخيه كليب:

حية في الوجار أربد لا تنفـ ـع منه السليم نفثة راق[55]

ويقول عنترة الطائي:

أترجو حياة يا ابن بشر بن مسهر وقد علقت رجلاك في ناب أسودا
أصمّ جباليّ إذا عضّ عضّة تزايل عنه جلده فتبدّدا
يفيت النفوس قبل أن يقع الرقى وإن أبرق الحاوي عليه وأرعدا[56]

ويقول أبو نواس لأهل مصر:

رماكم أمير المؤمنين بحية أكول لحيّات البلاد شروب[57]

فالمهلهل بن ربيعة يرثي أخاه كليباً، ويصفه بالتمكن من أعدائه وقتلهم والبطش بهم، ولهذا يصوره بالحية الأربد التي لا ينفع لديغها أو ينقذه من الموت نفثات الراقين، والأربد «ضرب من الحيات خبيث»[58] وقيل: هو «ضرب من الحيات يعضّ فيربد منه الوجه»[59].

54- المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1411هـ-1991م، 829/2.

55- الأب لويس شيخو، شعراء النصرانية في الجاهلية، مكتبة الآداب، القاهرة، د. ت، 178/2.

56- الجاحظ، كتاب الحيوان، 308/4. يفيت النفوس: يميتها موت الفجاءة، أبرق وأرعد: تهدد وأوعد.

57- أبو نواس، ديوانه، حققه وضبطه وشرحه أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1404هـ-1984م، ص484.

58- ابن منظور، لسان العرب، مادة ربد.

59- الدميري، حياة الحيوان الكبرى، 19/1.

ويهجو عنترة الطائي، ابن بشر، ويتوعده بالقتل، فيصور نفسه بالأسود الذي علقت في نابه رجلا ابن بشر، ثم يصف هذا الأسود بالأصم الجبالي الذي من قوة عضّه يتزايل عنه جلده ويتبدد، وبسرعة الفتك بالنفوس قبل سماع الرقى دون الاكتراث بتهديد الحاوي وإرعاده بالتمائم، والأسود هو « أخبث الحيات وأعظمها وأنكاها ... وليس شيء من الحيات أجرأ منه، وربما عارض الرفقة، وتبع الصوت، وهو الذي يطلب بالذحل ولا ينجو سليمه »[60]، وقيل عنه بأنه « يحقد ويطالب ويكمن في المتاع حتى يدرك؛ وله زمان يقتل فيه كل شيء نهشه »[61].

أما أبو نواس، فهو يخاطب أهل مصر عندما شغبوا على الخصيب، ويتوعدهم بالقتل والفتك، فيصور لهم الخصيب بالحية العظيمة التي تفتك بغيرها من حيات البلاد، فالحية الأكول استعارة للخصيب، وحيات البلاد استعارة للمشاغبين من أهل مصر، والحية الأكول للحيات كما سبقت الإشارة إليه، هو العربدّ، لكن التأثير الأبرز على الشاعر في بناء هذه الصورة، هو ما جاء في القرآن الكريم عن قصة موسى عليه السلام مع السحرة، وما يرويه أهل الأخبار عنها، يقول الله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الشعراء: 45]، فالخصيب أصبح كالحية في الفتك بالمشاغبين بعد أن رماه لهم أمير المؤمنين، والعصا أصبحت حية تفتك بحياة السحرة بعد أن ألقاها موسى عليه السلام، ويؤيد تأثر الشاعر بهذه الآية قوله في البيت السابق لهذا البيت:

فإن يك فيكم إفك فرعون باقيا فإن عصا موسى بكفّ خصيب

والقتل هو من أبرز ما عرف عن الحية في الثقافة العربية، سواء جاء نتيجة سمها، أو نتيجة سمها مع ما يحدثه الفزع منها، فقد ذكر الجاحظ أن الثعابين « إحدى القواتل، ويزعمون أنها ثلاثة أجناس لا ينجع فيها رقية ولا حيلة، كالثعبان والأفعى والهندية، ويقال: إن ما سواها فإنما يقتل مع ما يمدها من الفزع »[62] ويقول عن الأفعى: إنها « تقتل في كل حال وفي كل زمان »[63].

وشاعت لدى العرب أحاديث كثيرة عن فتك الحية بالإنسان أو بغيره من

60- ابن منظور، لسان العرب، مادة سود.

61- النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 133/10.

62- الجاحظ، كتاب الحيوان، 121/4.

63- نفسه، 214/4.

المخلوقات، وهي أحاديث بها كثير من المبالغات والتخيلات، جعلت من الحية كائناً أسطورياً، منها ما أورده الدميري عن حية يقال لها الصلّ وتسمى المكللة، حيث قال: «وهي شديدة الفساد، تحرق كل ما مرّت عليه، ولا ينبت حول جحرها شيء من الزرع أصلاً، وإذا حاذى مسكنها طائر سقط، ولا يمر حيوان بقربها إلا هلك، وتقتل بصفيرها على غلوة سهم، ومن وقع عليه بصرها ولو من بعيد مات، ومن نهشته مات في الحال، وضربها فارس برمحه فمات هو وفرسه»[64].

الإيذاء والإيلام

وهذه الدلالة تكثر لدى الشعراء في تصوير أنفسهم بالحيات، وتصوير شعرهم الهجائي بالسم في النيل من خصومهم وأعدائهم، وإيذائهم، يقول حسان بن ثابت في هجاء بني سهم:

قولي لكم آل شجع سم مطرقة حصاء تطحر عن أنيابها المدرا[65]

ويقول النابغة الشيباني:

من الشعر سم يقتل المرء طعمه كما تقتل الصمّ الأساود بالعضّ[66]

ويقول أبو تمام في هجاء أبي الوليد محمد بن أبي داود:

لنمت ونام عرضك والقوافي سواخط لا تنام ولا تنيم
يبيت يثيرها لك أفعوان بلصب ما يبلّ له سليم[67]

فحسان بن ثابت يصور هجاءه لبني سهم في إيذائه وإيلامه، بسم حية مطرقة لا شعر له، تقذف الطين عن أنيابها استعداداً للنهش، بينما يصور النابغة الشيباني شعر

64- الدميري، حياة الحيوان الكبرى، 276/1.

65- حسان بن ثابت، ديوانه، تحقيق سيد حنفي حسنين، دار المعارف، القاهرة، د. ت، ص344. حصاء: لا شعر عليها، تطحر: تقذف، المدر: الطين.

66- النابغة الشيباني، ديوانه، تحقيق وشرح محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط1، 1998م، ص199.

67- أبو تمام، ديوانه، بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة، ط3، د. ت، 429/4. اللصب: الشعب الصغير في الجبل، يبلّ: يبرأ، السليم: اللديغ.

الهجاء بالسم الذي يقتل طعمه الإنسان، ثم يصور هذا القتل بقتل الحيات السود للإنسان بالعض، وقتل شعر الهجاء للإنسان ليس قتلاً حقيقياً، وإنما هو قتل مجازي يراد به الإيذاء والإيلام.

أما أبو تمام، فهو في البيت الأول يدعو على أبي الوليد وعلى عرضه بعدم النوم، ثم يذكر أن القوافي لا تنام ولا تنيم من السخط، وفي البيت الثاني يصور نفسه وهو ينظم هذه القوافي المؤذية المؤلمة، بالأفعوان القاطن بشعب أحد الجبال الذي لا يبرأ لديغه من الأذى الذي لحق به.

والإيذاء والإيلام هما أبرز شيء عرفت به الحية في الثقافة العربية، وبسببهما هابها العرب وبالغوا في التهويل من أمرها، وأنواعها المؤذية كثيرة، منها التي ذكرها هؤلاء الشعراء؛ كالحية المطرقة، والحية الصماء السوداء، والأفعوان.

وإيذاء الحية عند العرب كما مرّ بنا في الصفحات الماضية، لا يتوقف عند مجرد الألم وشدّته، وإنما يتجاوزه في كثير من الأحيان إلى درجة القتل والفتك وهما أشد أنواع الإيذاء.

أما الصفات التي تندرج تحت معنى الشر، وجرت في غرض الهجاء والذم، أو غرض الحكمة، والتي لأجل وصف الرجل بها، جرى تصويره بالحية، فهي أيضاً من ضمن الصفات التي كانت ترمز لها الحية في الثقافة العربية، مثل السوء والشر، وعدم الأمان، والتغرير والخداع، والظلم والعدوان، وهي أيضاً من ضمن الصفات المتقاربة والمتداخلة إلى حد ما.

السوء والشر

يقول بشار بن برد:

ومعشر قوم منقع لي في صدورهم سمُّ الأساود يغلي في المواعيد[68]

ويقول مهيار الديلمي في التعريض بالساعي به عند جلال الدولة:

68- بشار بن برد، ديوانه، شرحه ورتَّب قوافيه وقدّم له مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ص431. المنقع: الذي يخبئ السم.

وحطـــتني أمنـــا وقـــد ثـــار لـــي بالشـــرِّ صـــل الرملـــة الواقـــب[69]

ويقول ابن البواب في هجاء أبيه:

لـي أب كـل مـا بـه يوصـف النـا س فهـــــو منـــــه مـــــبرا

فهـو كالصـل مـن بنـات الأفـاعي كلمـــا زاد عمـــره زاد شـــرا[70]

فبشار يهجو هؤلاء المعشر، ويصور ما يضمرونه له في صدورهم من سوء وشر، بسم الأساود الذي يغلي من شدّته، ويهجو مهيار ذلك الشخص الساعي له بالسوء والشر عند جلال الدولة، فيصوره بصل الرملة الكامن في إحدى الحفر لمباغتة من يقترب منها وإلحاق الأذى به، أما ابن البواب فهو يهجو أباه، فيبرئه من صفات الخير التي يوصف بها الناس، ويصوره بالصل الذي كلما زاد عمره زاد في السوء والشر.

والحية الأسود والحية الصل كما مرّ بنا في الصفحات الماضية، هما من أخبث الحيات؛ ولهذا فلن يلحق الإنسان منهما سوى السوء والشر، وقد ألمح ابن البواب في بيته الأخير إلى ما كانت تعرف به الحية في الثقافة العربية من طول العمر.

إذ على الرغم من أن عمر الحية يتراوح بين (10–27)، سنة لمختلف أنواعها الكبيرة والصغيرة[71]، فإن العرب عادة ما يصفونها بطول العمر، فاسمها مشتق من الحياة[72]، ويزعمون أنها «تعيش ألف سنة أو أكثر»[73]، ومما كنوا به أحد أنواعها وهو الأفعوان «أبو حيان وأبو يحيى؛ لأنه يعيش ألف سنة»[74] ووصفوا نوعاً آخر يقال له الأصلة بأنه «عظيم جداً له وجه كوجه الإنسان، ويقال إنه يصير كذلك إذا مرت عليه

69– مهيار الديلمي: ديوانه، تحقيق دار الكتب المصرية، تقديم أبو همام عبد اللطيف عبد الحليم، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2008م، 139/1، الواقب: الداخل في الوقب، والوقب الحفرة أو البئر أو النقرة في الصخر.

70– صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، دار الفكر، بيروت، ط1، 1425هـ/1426هـ–2005م، 46/3.

71– ينظر: عادل محمد علي الشيخ حسين، الحيات والثعابين، ص26.

72– ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة حيا.

73– القزويني، عجائب المخلوقات، بحاشية كتاب حياة الحيوان الكبرى، للدميري، دار الفكر، بيروت، د. ت، 312/2.

74– الدميري، حياة الحيوان الكبرى، 27/1.

ألوف من السنين »[75].

عدم الأمان

يقول الصاحب بن عباد:

لقد صدقوا والرّاقصات إلى منى بأن مودّات العدى ليس تنفع
ولو أنني داريت عمري حية إذا مكنت يوماً من اللسع تلسع[76]

ويقول أبو الفتح البستي:

من استنام إلى الأشرار قام وفي قميصه منهم صل وثعبان[77]

ويقول الشريف الرضي:

لا تأمنن عدواً لان جانبه خشونة الصل عقبى ذلك اللين[78]

فالصاحب بن عباد يقسم بإبل الحجيج على صدق من قال بأن مودة الأعداء لا نفع من ورائها، ويصور عدم أمان العدو وعدم نفع مداراته والتودد إليه بعدم أمان الحية وعدم نفع مداراتها والتودد إليها؛ لأنها متى تمكنت من اللسع ستلسع رغم طول المداراة والتودد، بينما يصور أبو الفتح البستي من سكن إلى الأشرار وأمنهم ووثق بهم، بمن سكن وأمن بالصل والثعبان، وقام وهما بداخل قميصه، أي أن الأذى لا محالة واقع ولا وجود للأمان، أما الشريف الرضي، فهو يأمر بعدم ائتمان من لان جانبه من الأعداء، ويصوره بالصل الذي تكون خشونته وإيذاؤه تاليين للينه وهدوئه.

75- الدميري، حياة الحيوان الكبرى، 276/1.

76- الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، قدم له وحققه إبراهيم صقر، مكتبة مصر سعيد جودة السحار وشركاه، القاهرة، د. ت، 253/3.

77- بهاء الدين العاملي، الكشكول، ضبطه وصححه محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ-1998م، 241/1.

78- الشريف الرضي، ديوانه، 394/2.

التغرير والخداع

وهذه الصفة قريبة جداً من السابقة؛ لأن المخادع والمغرر لا يؤمن جانبه، فهو يظهر أمراً ويبطن عكسه، أي يظهر الخير ويبطن الشر.

يقول الشاعر:

متى تحمد صديق السوء فاعلم بأنك بعد محمدة تذمه
كطفل راقه ترقيش صل فلما مسّه أرداه سمّه[79]

ويقول أبو بكر الخوارزمي:

لا تغرّنك هذه الأوجه الغرر فيا رب حية في رياض[80]

ويقول مهيار الديلمي في تحذير نور الدولة من بعض أعدائه:

توقّ تحية ابن العم يوما فربّ فم بقبلته يكيد
ولا تخدعك مسحة ظهر أفعى فتحت لثاته ناب حديد[81]

فالشاعر في النموذج الأول يبين أن من ينخدع بما يظهره صديق السوء من أفعال حسنة فيحمده لأجلها، لا بد أن ينكشف له أمره وتظهر له حقيقته، فيذمه من بعد حمده له، ويصور حال هذا المنخدع بحال الطفل الذي انخدع بالصل، واغترّ بجماله وترقيشه فأحب ملامسته، لكن بمجرد أن مسّه فتك به وأرداه قتيلاً، بينما ينهى أبو بكر الخوارزمي عن الاغترار ببعض أصحاب الوجوه الجميلة الذين يبطنون الشرّ والأذى؛ لأن حسنهم وجمالهم مخادع؛ ولهذا يصورهم بالحية في الرياض الجميلة الساحرة، أما مهيار الديلمي فينصح نور الدولة بأخذ الحذر من ابن العم المخادع، والتوقي من تحيته وقبلته المغررة، التي يظهر فيها الخير والحب، بينما هو في الحقيقة يبطن الشرّ والكره، ثم

79- الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، د. م، 1983م، ص378.

80- الثعالبي، الإعجاز والإيجاز، تقديم وتعليق محمد زنهم، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 1426هـ-2006م، ص164.

81- مهيار الديلمي، ديوانه، 287/1.

يصور الانخداع بما يظهره ابن العم هذا، بالانخداع بما تظهره الأفعى من لين ملمس ظهرها وجمال شكله؛ لأنها تخفي تحت لثاتها ناباً حاداً يقضي على من نهشه.

ومعظم الحيات التي عرفها العرب، أو التي كان لها تأثير في حياتهم اليومية أو في ثقافتهم بشكل عام، هي الحيات الخبيثة المؤذية الشريرة، سواء أكانت أفعى، أم صلاً، أم ثعباناً، أم غيرها، فهي معروفة بالكذب والخداع وعدم الأمان، ومما يذكره الجاحظ عن الحية من هذه الناحية، أنها «تنطوي في الرمل على الطريق، وتدخل بعض جسدها في الرمل، فتظهر كأنها طبق خيزران، ومنها حيات بيض قصار، تجمع بين أطرافها على طريق الناس، وتستدير كأنها طوق أو خلخال، أو سوار ذهب أو فضة، ولما تلقي على نفسها من السبات، ولما تظهر من الهرب من الناس، وكل ذلك إنما تغرّهم وتصطادهم بتلك الحيلة»[82].

وقد عمّق الإسلام في الثقافة العربية رمزية الحية للسوء والشر، والتغرير والخداع، وعدم الأمان؛ فقد روي عن السيدة عائشة أم المؤمنين –رضي الله عنها– أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الحية فاسقة، والعقرب فاسقة، والغراب فاسق، والفأرة فاسقة»[83]، كما روي عنه ﷺ ترغيبه في قتل الحية؛ فقال فيما رواه عنه ابن مسعود: «من قتل حية فله سبع حسنات، ومن قتل وزغاً فله حسنة، ومن ترك حية مخافة عاقبتها فليس منا»[84].

الظلم والعدوان

يقول الشاعر:

فأنت كالأفعى التي لا تحتفر ثم تجي سائرة فتنجحر[85]

ويقول ابن دريد الأزدي:

82– الجاحظ، كتاب الحيوان، 200/4.

83– أحمد بن حنبل، المسند، شرحه ووضع فهارسه أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1416هـ–1995م، 44/18.

84– نفسه، 108/4.

85– الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص426. تنجحر: تدخل في الجحر.

وهـــم لمـــن لان لهـــم جانبـــه أظلم من حيات أنبات السفى[86]

ففي البيت الأول صور الشاعر الرجل في الظلم والعدوان بالأفعى التي لا تحفر لنفسها جحراً، وإنما تستولي على جحور الآخرين، بينما صور ابن دريد الأزدي في البيت الثاني الناس في ظلمهم لمن ألان لهم جانبه، بالحية التي تنبش التراب وتستولي على جحور غيرها.

والحية في الثقافة العربية رمز للظلم والعدوان وبها تضرب العرب المثل، يقولون: «أظلم من حية، أظلم من حية الوادي، أظلم من أفعى»[87]، كما تقول عن ظلم الحية: «ليس شيء أظلم من الحية؛ لأن الحية لا تتخذ لنفسها بيتاً، وكل بيت قصدت نحوه، هرب منه أهله فخلوه لها فتدخله، واثقة أن ذلك الساكن بين أمرين: فإما أقام فصار طعاماً لها، وإما هرب فصار البيت لها»[88].

إن ما أوردته في هذه الصفحات من نماذج في تصوير الرجل بالحية، إنما هو قليل من كثير تزخر به كتب الأدب ودواوين الشعراء، وهي من الكثرة بحيث يصعب استقصاؤها أو الإحاطة بها، لكن الصفات التي جاء التصوير لأجل إبرازها، هي في الغالب لا تخرج عن هذه الصفات المذكورة، وإن خرجت فهي تدور في فلكها ولا تبتعد عنها، وحتى هذه الصفات، هي صفات متقاربة ومتداخلة مع بعضها البعض.

وفي هذا السياق أودّ الإشارة إلى ثلاث نقاط، هي:

1. إن الكثير مما شاع عن الحية في الثقافة العربية وأوردته المصادر شيء مبالغ فيه، صحيح أن بعضه مستمد من الواقع، لكن الكثير منه بعيد عن الحقيقة ولا يمت إلى الواقع بصلة، مما يعني أن للثقافة الأسطورية دوراً في تشكيل صورة الحية وما شاع عنها من أوصاف.
2. إن ما جرى التصوير به من الحيات، إنما هي من الأنواع السامة المؤذية، سواء أكانت الحية حية صماء، أم حية ذكراً، أم حية واد، أم حية أرض، أم أفعى، أم أفعوان، أم

86- البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1418هـ-1997م، 118/3. النبث، النبش، السفى: التراب.

87- أبو هلال العسكري، كتاب جمهرة الأمثال، دار الجيل، بيروت، ط2، 1408هـ-1988م، 27/2.

88- الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص426.

صل، أم شجاع، أم ثعبان، أم عربدّ، أم أرقم، أم أسود، فجميع هذه الأسماء أو الألقاب يطلقها العرب على بعض الأنواع السامة من الحيات، مما يعني أن ما لفت انتباه العرب من أنواع الحيات، وأثّر في ثقافتهم، إنما هي الأنواع السامة المؤذية، فهي التي كان لها تأثير في حياتهم، بسبب ما لحقهم منها من ويلات.

3. إن ما اعتبر خيراً أو شراً من صفات الحية عند التصوير الرجل بها، لا يرجع إلى نوع الحية وصفاتها، فهي في الحالتين مؤذية فتاكة، وإنما يرجع إلى المقام الذي جاء فيه التصوير، وإلى شخصية المصور بالحية، فإذا كان المقام مقام مدح أو فخر، والمصور بالحية هو الشاعر أو الممدوح، فإن الفتك والأذى سيكونان من صفات الخير المرغوب فيهما، لكونهما صادرين عن الشاعر أو الممدوح ولاحقين بأعدائهما، أما إذا كان المقام مقام هجاء وذم، والمصور بالحية هو عدو الشاعر أو الممدوح، فإن الفتك والأذى سيكونان من صفات الشر؛ لكونهما صادرين من العدو، ولاحقين بالشاعر أو الممدوح.

وما يثير الاستغراب، ويبعث على التساؤل، هو كيف اعتبرت الحية رمزاً لصفات خير وصف بها الشاعر نفسه أو ممدوحه حيناً، ورمزاً لصفات شرّ وصف بها الشاعر الأعداء حيناً آخر؟!

لا أعتقد أن ذلك راجع إلى اختلاف أنواع الحيات من حيث الإيذاء أو عدمه؛ لأن ما جرى التصوير به من أنواع الحيات، واتخذ رمزاً للخير حيناً، وللشر حيناً آخر، كان من الأنواع المؤذية السامة، مما يعني أن الأمر راجع لشيء آخر أثر في الشاعر، وحمله على هذه الازدواجية، هذا الأمر هو الموروث الثقافي الذي يعيش في أعماق الشاعر، ويتأثر به لا شعورياً عند التصوير بالحية، واتخاذها رمزاً من رموز الخير والشر، فمن هذا الموروث «الديني والشعبي للعرب قبل الإسلام وبعده، يلاحظ أنهم كانوا يعدون الأفعى ذات طبيعة مزدوجة من الخير والشر، وعلى أساس هذه الطبيعة تشكلت صورة الأفعى المعبودة الحارسة، والأفعى الطيبة، والأفعى الشريرة، وقد تسللت بعض هذه المعتقدات إلى حياتنا الحديثة في شكل تقاليد وعادات نمارسها ولا نعي أصولها الميثولوجية»(89).

89- إبراهيم عبد الرحمن محمد، الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية، الشركة العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، ط1، 2000م، ص26.

وفي تصوري أن الازدواجية في رمزية الحية للخير والشر في الموروث الثقافي، تعود إلى علاقة الحية بالجن، فالجن في هذا الموروث، منه الخيّر ومنه الشرير، ولهم القدرة على التشكل بالصور الحسنة والصور القبيحة، قال عنه القزويني: هو «حيوان ناري مشف الجرم، من شأنه أن يتشكل بأشكال مختلفة»[90]، وقال عنهم الدميري: هم «أجسام هوائية، قادرة على التشكل بأشكال مختلفة»[91]، وشكل الحية هو أبرز الأشكال التي يتشكل بها، ويتراءى من خلالها للناس[92].

وللعرب في الجاهلية العديد من المعتقدات التي تؤكد الصلة بين الحية والجن، منها أنهم كانوا «يزعمون أن الجن تطلب بثأر الجان، وهي الحية الدقيقة، فربما مات قاتلها، وربما أصابه خبل»[93]؛ ولهذا فإنهم «كانوا إذا قتلوا الثعبان، خافوا من الجن أن يأخذ بثأره، فيأخذوا روثه ويفتون على رأسه ويقولون روثة راث ثائرك، وقال بعضهم:

طرحنا عليه الروث والزجر صادقا فراث علينا ثاره والطوائل

وقد يذر على الحية المقتولة يسير رماد، ويقال قتلك العين فلا ثأر لك»[94].

ولهم في أخذ الجن بثأر الجني المقتول، المتشكل في صورة حية، العديد من الأساطير، منها قصة موت حرب بن أمية، ومرداس بن أبي عامر[95]، كما لهم في مكافأة الجن المتشكل بشكل الحية لكل من ساعده أو وقف معه عند الحاجة، أساطير أخرى، منها القصة التي تروى عن الشاعر عبيد بن الأبرص[96].

والأمر قد يتعدى مجرد تشكل الجن بصورة الحيات إلى اعتبار الحيات من نسل الجن، كما جاء في رواية المسعودي عن أهل الشرائع، وأهل التاريخ، والمصنفين لكتب

90- القزويني، عجائب المخلوقات، 170/2.

91- الدميري، حياة الحيوان الكبرى، 203/1.

92- ينظر: محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية، ودلالاتها، ص366.

93- الدميري، حياة الحيوان الكبرى، 20/1.

94- الألوسي، بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، عنى بشرحه وتصحيحه وضبطه محمد بهجت الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، 385/2.

95- ينظر: أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، دار الثقافة، بيروت، ط5، 1401هـ-1981م، 322/6.

96- ينظر: القزويني، عجائب المخلوقات، 184/2-185.

البدو، أمثال وهب بن منبه، وابن إسحاق، وغيرهما[97].

وإذا كان الإسلام قد قضى على كثير من المعتقدات المتعلقة بالجان والحيات، فإنه لم يقطع الصلة بينهما نهائياً، بل يمكن القول إنه زاد من تقويتها في عقول العديد من الناس، فقد جمع الله ﷻ بين الحية والثعبان والجان في صفة عصا موسى عليه السلام، فوصفها بأنها حية في قوله: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ﴾ [طه: 20]، وبأنها ثعبان في قوله: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: 32]، وبأنها جان في قوله: ﴿رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: 10].

وجعل النبي ﷺ الجن ثلاثة أنواع، واحد منها على شكل حيات، فقد روي أنه ﷺ قال: «الجن ثلاثة أصناف: فصنف لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء، وصنف حيات، وصنف يحلون ويظعنون»[98].

ورمزية الحية للخير، هي في الأصل تعود إلى الحية الحارسة المقدسة في الثقافة العربية القديمة. فالحارس أو الحارسة، سواء أكان إنساناً أم حيواناً، ينبغي أن تتوافر فيه مجموعة من الصفات كي يكون مؤهلاً للقيام بمهمة الحراسة، من أهمها: الشجاعة والبأس، والقوة والمنعة، والحمية والحفيظة، واليقظة والتوقد، والذكاء والدهاء، إضافة إلى القدرة على الإيذاء والإيلام، والقتل والفتك بمن يحاول الاعتداء على الشيء المحروس، وهذه الصفات كما مرَّ بنا، هي الصفات التي جمع فيها الشعراء بين الحية والرجل الخير (الشاعر أو الممدوح).

وتقديس الحية، وقيامها بمهمة الحراسة والحماية، أمر شائع في العديد من ثقافات العالم القديم، المصرية، والهندية، والإغريقية، والعبرانية، والأوربية، سواء أكان المحروس أمراً مادياً، أم قيمة إيجابية من قيم الجماعة[99].

وإذا كانت المصادر لم تؤكد عبادة العرب للحية، فإنها أشارت إلى أنها كانت مقدسة عندهم، حيث كانت في ثقافة ما قبل الإسلام، رمزاً للإله القمر، أو رمزاً لبعض

97- ينظر: المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، عنى به محمد هشام النعسان وعبد الحميد طعمه حلبي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1426هـ-2005م، 137/2.

98- الدميري، حياة الحيوان الكبرى، 203/1.

99- ينظر: ثناء أنس الوجود، رمز الأفعى في التراث العربي، ص59-65.

الأصنام التي كانت في الأصل واسطة لعبادته والتقرب إليه[100].

أما الحية الحارسة والحامية، فأمرها شائع في الثقافة العربية في عصر ما قبل الإسلام وعصر ما بعده. فهناك الحية التي تقوم بحراسة الأودية وأماكن المياه كالآبار والعيون والغدران، مثل حية الوادي، وهي حارسة الوادي وحاميته، وحية القف، وهي حارسة البئر وحاميته؛ لأن من معاني القف، الدكة التي تجعل على البئر[101]، وداهية الغبر، وهي الحية التي «سكنت بقرب ماء، إما غدير وإما عين، فتحمي ذلك الموضع، وربما غبر ذلك الماء في المنقع حيناً وقد حمته»[102].

وهناك أيضا الحية التي كانت تحرس بئر زمزم، وتحمي الكعبة من الهدم أو الاعتداء عليها، حتى إن قريشاً لم تستطع الاقتراب من الكعبة لهدمها وإعادة بنائها، إلا بعد أن أرسل الله لها طائراً اختطفها وذهب بها بعيداً[103].

ولم يقتصر دور الحية في خيال العربي على الحراسة في عالمه الأرضي، وإنما امتدّ إلى عالم الغيبيات، مثل القيام بمهمة حماية العرش من الغرور والزهو حين طوقه الله ﷻ بها[104].

كما امتد دورها في الثقافة العربية في عصر ما بعد الإسلام، إلى حماية القيم الدينية والشرعية، من ذلك ما رواه الدميري عن شاب طعن في حديث رواه أبو هريرة، واعتبر أبا هريرة غير مقبول الحديث «فما استتم كلامه، حتى سقطت عليه حية عظيمة من سقف الجامع، فهرب الناس، وتبعت الشاب دون غيره، فقيل له: تب، تب، فقال: تبت، فغابت الحية ولم يبق لها أثر»[105]، ومنه أيضاً ما رواه الدميري عن عمر بن الخطاب ﷺ عندما جمع الصحابة ﷺ، وأراد أن يقضي بحكم خاطئ في مسألة ميراث الجد، بخلاف حكم بقية الصحابة «فخرجت حية فتفرقوا، فقال: لو أراد الله أن يمضيه لأمضاه»[106].

100- ينظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 253/6، 259، 298، 328.

101- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة قفف.

102- الجاحظ، كتاب الحيوان، 146/4.

103- ينظر: الثعلبي، قصص الأنبياء، المسمى عرائس المجالس، المكتبة الثقافية، بيروت، د. ت، ص78.

104- ينظر: نفسه، ص13، والدميري، حياة الحيوان الكبرى، 278/1.

105- الدميري، حياة الحيوان الكبرى، 280/1.

106- نفسه، 281/1.

أما رمزية الحية للشر، فهي في الأصل تعود إلى علاقة الحية بالشيطان، فإذا كان لفظ الشيطان يطلق حقيقة على إبليس وأتباعه من عصاة الله ومضلي عباده، فإنه يطلق مجازاً على الداهية من الحيات، فيقال: «وكأنه شيطان الحماطة، وهو الداهية من الحيات»[107].

وربما أدت كثرة إطلاق اسم الشيطان على نوع من أنواع الحيات، وهو الحية القبيحة المنظر التي لها عرف، إلى اعتباره من الأسماء التي تطلق عليها على سبيل الحقيقة، ومع ذلك فقد يطلق على الحية الخفيفة الدقيقة شيطاناً على سبيل التشبيه[108].

ومن اعتقادات العرب عن أسباب طول عمر الحية وعدم موتها حتف أنفها، اعتقادهم بوجود شياطين فيها[109]. وعلاقة الحية بالشيطان هي علاقة قديمة جداً، فهي لدى البعض تعود إلى زمن آدم عليه السلام وزوجته حواء، عندما تسبّبت في معصيتهما لله وإخراجهما من الجنة، وحرمانهما من النعيم والخلود.

وإذا كان الشيطان هو الذي قام بهذه العملية كما جاء في القرآن الكريم، فإن الذي قام بهذا العمل بحسب رواية التوراة هو الحية، جاء في سفر التكوين: «وكانت الحية أحيل جميع الحيوانات البرية التي عملها الرب الإله، فقالت للمرأة: أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحية: من ثمر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة. فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم أنه يوم تأكلا منه تنفتح أعينكما وتكونا كالله عارفين الخير والشر، فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل»[110].

أما ما يرويه أهل الأخبار، فإنه يجمع ما بين ما جاء في القرآن الكريم، وما جاء في رواية التوراة حول هذه الحادثة، وهو أن الذي قام بخداع آدم وحواء، وزين لهما الأكل من الشجرة، هو إبليس عليه لعنة الله، بينما قامت الحية بمساعدته على ذلك،

107- الزمخشري، أساس البلاغة، دار صادرن بيروت، ط1، 1412هـ-1992م، مادة شطن.

108- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة شطن

109- الجاحظ، كتاب الحيوان، 157/4.

110- الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، مصر، الإصدار الثالث، ط3، 2006م، العهد القديم، سفر التكوين، 1/3-6.

عندما مكنته من الدخول إلى الجنة والوصول إلى آدم وحواء، فقد ذكر «أصحاب الأخبار، أن إبليس أراد أن يدخل الجنة ليوسوس لآدم وحواء، فمنعه الخزنة من ذلك، فأتى الحية وكانت من أحسن الدواب التي خلقها الله تعالى: لها أربع قوائم كقوائم البعير، وكانت من خزان الجنة، وكانت لإبليس صديقة، فسألها أن تدخله الجنة في فمها، فأدخلته في فمها، ومرت به على الخزنة وهم لا يعلمون، فأدخلته الجنة»(111).

ولا يعرف بالتحديد هل هذه الرواية كانت شائعة عند أهل الكتاب، بحيث استقاها أهل الأخبار منهم، أو أنها محاولة منهم للتوفيق بين ما جاء في القرآن الكريم وما جاء في التوراة حول هذه الحادثة.

أخيراً ومما سبق، يتضح أن للحية مكانة مميزة في الثقافة العربية بمختلف مكوناتها، وأن تأثيرها على الشعراء في تشكيل صورهم الشعرية، وبخاصة التي جاءت في تصوير الرجل، لم يقتصر على ما كانت تمثله الحية في ثقافتهم الواقعية، المستمدة من الطبيعة أو من الواقع الاجتماعي، وإنما امتد إلى الثقافة الدينية والأسطورية والأدبية، التي يشعرون بتأثيرها عليهم، أو التي يجدون أنفسهم متأثرين بها دون وعي منهم إلى ذلك، وهذا يؤكد خاصية من خصائص الثقافة، وهي الاستمرارية وعدم الاندثار مهما تقادم العهد وتغيرت المفاهيم والقيم، هذه الخاصية التي تتيح لنا تعدد قراءة النص الشعري وتفسير صوره الشعرية، بالاعتماد على ما كانت تمثله عناصر الصور في الثقافة العربية، سواء أكانت قديمة أم حديثة.

111- الثعلبي، قصص الأنبياء، ص26. وينظر: الطبري، تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، راجعه وقدم له وأعد فهارسه نواف الجراح، دار صادر، بيروت، ط2، 1426هـ-1986م، 34/1.